

ميزان الإنسانية في عصر الغيبة؛ تحليل مسار السلوك وبلوغ درجة الإمام

امتحان الغيبة: كيف يمكن بلوغ درجة الإمام في عصر الغيبة؟

افترض أن باحثاً يعتزم تقييم جودة جوهرة مجهولة. العين المجردة لا ترى سوى ظاهر الحجر؛ غير أنّ قيمته الحقيقية لا تنكشف إلا عندما يوضع تحت ضوء جهازٍ معياري. عندئذٍ تظهر الشوائب، وخطوط التكسّر، بل وحتى القابلية الكامنة للحجر على القطع والتألق. وبدون ذلك الضوء المعياريّ، يبقى كلّ تشخيصٍ احتماليّاً ومشحوناً بالخطأ. في علم الإنسان الشيعي، يبدو وضع الإنسان شبيهاً جداً بهذا المثال؛ فنحن نملك مجموعة من المواهب والضعف والقدرات، ولكن ما لم نضع أنفسنا أمام "النور المعياري"، فلن نعرف حقيقة أنفسنا بشكل قطعي. والسؤال هنا: ما هو هذا النور؟ وكيف يُقاس الإنسان من خلاله؟ يقدّم علم الإنسان الشيعي جواباً واضحاً عن هذا السؤال: لقد جعل الله ميزان قياس حقيقة الإنسان في وجود الإمام؛ نوراً يمتلك قابلية كشف ماهية الإنسان واتجاه وجوده. كما تؤكّد رواية الإمام علي (عليه السلام) بشأن زمن الغيبة هذه الحقيقة نفسها؛ إذ يؤكّد أنّ الذين يحافظون في هذه المرحلة العصيبة على ثباتهم الدينيّ ولا تصيب قلوبهم القسوة، يبلغون مرتبةً يكونون فيها يوم القيامة معي في درجتي.^١ يكشف هذا البيان أنّ مسار التدرّج مع الإمام ليس مساراً عاطفياً أو رمزيّاً، بل هو عملية دقيقة قابلة للتحليل، تقوم على كميّة وقوف الإنسان أمام الميزان الإلهي. في هذا الدرس نبحث آلية هذا القياس، ومنطق امتحان الغيبة، والعلاقة بين معرفة الإمام، والإيمان بحضوره، والارتباط العملي بالولاية، ليتّضح كيف يمكن للإنسان، في ضوء هذا الميزان الإلهي، أن يقترب من مرتبة بلوغ درجة الإمام.

الميزان الإلهي لقياس حقيقة الإنسان ونقطة الانطلاق نحو بلوغ درجة الإمام

في فكرنا الديني، ليس الإمام مجرد مرشد، بل هو "الميزان" الذي تُقاس به أعمال العباد؛^٢ أي المعيار الذي ينبغي للإنسان أن يقيس به حقيقته. ويُعدّ الإمام المهدي أكبر مرآة أقامها الله لقياس روح الإنسان؛ هذه المرآة تظهر لنا المسافة بيننا وبين "الإنسان الكامل"، وتكشف لنا مدى قربنا أو بعدنا عن طريق الحق.

١ ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٤٢١
٢ تفسير الصافي، ج ٥، ص ١٠٧، معاني الأخبار، ص ٣١ و ٣٢

وبناءً على هذه الرؤية، لا يتحقق بلوغ درجة الإمام إلا إذا قاس الإنسان نفسه بهذا الميزان الكامل. أمّا إذا ابتعد الإنسان عن هذه المرآة، فإن معرفته بذاته تصبح ناقصة وملتبسة، ومتأثرة بالأهواء الشخصية. وبعبارة أخرى، فإنّ كلّ مسارٍ سلوكيّ يخلو من ميزان الإمام، يكون معرضاً للانحراف منذ بدايته. وخلاصة القول إنّ معرفة الإمام المهدي ليست معرفةً جانبية أو شكلية، بل هي شرط ضروري لفهم الحقيقة والخطوة الأولى لنكون في درجته.

ساحة اختبار الثبات والشرط الأساسي لبلوغ درجة الإمام

حسب قول الإمام علي (عليه السلام) يُعدّ عصر الغيبة مشهداً من الحيرة والضياغ، وساحةً لبحثٍ غير مثمر يقوم به الشيعة طلباً لملاذٍ آمنٍ ومأوى مطمئن؛^٣ وهي حالة تضع الإنسان أمام اختبارين أساسيين:

١. الثبات على الدين

٢. الحفاظ على لينة القلب وحياته (عدم القسوة).

فمن يثبت في هذه الظروف على إيمانه ولا يستسلم لقسوة القلب، فإنّه - بحسب بيان الإمام علي (عليه السلام) - يكون يوم القيامة في درجته ومعه. ومن هنا يتّضح أنّ بلوغ درجة الإمام لا يتحقق بالدعوى، ولا بمجرد المحبّة، ولا بالمشاعر العابرة، بل بالصمود والثبات في ساحة الاختبار. ويمتاز عصر الغيبة أنّ المقاييس الظاهرية تتلاشى، ولا يبقى أحد ثابتاً على الحق إلا من حافظ على اتصاله الوجودي بالإمام. هذا الاتصال هو الحلقة الحيوية التي تصل الإيمان بالحقيقة، وهو الأساس الذي يقوم عليه بلوغ درجة الإمام.

الإمام كمرآة ودوره في الإصلاح الباطني

إنّ الأثر الأساس للوعي بكون إمام الزمان (عليه السلام) مرآةً في مواجهة تعارضات الحياة، يتمثّل في إصلاح النفس وتنقية النية. فقلب الإنسان، إذا غفل عن الإمام، تعتريه الظلمة ويفقد القدرة على رؤية الحقيقة؛ وكلّما تعمّق الارتباط بالإمام، ازدادت صفاء مرآة الداخل، ونال الإنسان قدرةً أدقّ على محاسبة نفسه وقياسها.

^٣ ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٢٢١

هذه العملية وتُشكّل الأساس لبلوغ درجة الإمام؛ إذ من دون تنقية النية ورفع الحُجُب القلبية، لا يمتلك الإنسان القدرة على الاستقرار في مدار نور الإمام. ومن هنا يتّضح أنّ كون الإمام مرآة ليس مجرد تشبيهٍ بلاغي، بل آلية واقعية وفاعلة لتحقيق بلوغ درجة الإمام.

ويظلّ "الثبات على الدين" هو الملاذ الأخير للنجاة وبلوغ درجات المعصومين. الثبات الديني يعني البقاء في حالة من الاستقرار العملي أمام متغيّرات وتحديات يفرضها عصر الغيبة. من يفتقر إلى هذا الثبات يفقد ارتباطه الوجودي بالإمام، وتغشى مرآة روحه بالغبار، أما الإنسان الثابت، فإنّه بفضل هذا الثبات يحافظ على موقعه في مدار الإمام، وبذلك يعزّز في ذاته قابلية بلوغ الدرجة نفسها معه.

هذا الثبات يقوم على بُعدين متكاملين: بُعد معرفي وبُعد عملي، ويتجلّى في:

• المعرفة الصحيحة بالإمام

• الالتزام العملي المستمر المنبثق من هذه المعرفة

• الحفاظ على التوجّه الإلهي عبر امتداد الزمن

تُشكّل هذه العناصر الثلاثة البنية الأساسية لشخصية الإنسان المنتظر، وتضعه على المسار الصحيح نحو بلوغ درجة الإمام.

العائق الرئيسي في طريق بلوغ درجة الإمام

طولُ أمد الانتظار بالقلوب الغافلة إلى "القسوة"؛ وهي حالة يفقد فيها المرء حساسيته تجاه الحقّ ويعجز عن الاغتراف من النور الإلهي. فالقلب القاسي لا يستطيع أن يجعل الإمام مرآته، ونتيجة لذلك يُخلق أمامه طريق بلوغ درجة الإمام. في المقابل، يكون القلب الحيّ اللَّين متواضعًا أمام الحقيقة، ومتهيّئًا لتلقّي الهداية. ومن أهمّ آثار الارتباط بالإمام أنّه يحول دون وقوع هذه القسوة في القلب. وبناءً على ذلك، فإنّ الحذر من الابتلاء بفسوة القلب ليس مجرّد توصية أخلاقية، بل شرطٌ مباشر وأساسي لإمكانية بلوغ درجة الإمام.

ثلاث خطوات للسلوك نحو درجة الإمام

وفقًا لكلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، فإنّ مسار بلوغ الدرجة نفسها مع الإمام يقوم على ثلاث خطوات أساسية: المعرفة، والإيمان، والارتباط العملي بالإمام. فمعرفة الإمام تُكتسب عبر العقل والوحي، وهي التي تُحدّد معيار الإنسانيّة وتبيّن مقياسها؛ ومن دون هذه المعرفة يبقى التقويم الداخلي ومسار النمو غامضين

وغير محددين. أمّا الإيمان القلبي بحضور الإمام ودوره الفاعل والمستمر، فإنّه يثبت أمل الإنسان واتجاهه الوجودي، ويشكّل درعاً واقياً في مواجهة ظلمات الحيرة والتيه في عصر الغيبة. وأمّا الارتباط العملي والقلبي بالإمام، فيحفظ الإنسان داخل مدار الهداية، ويُمهّد - عبر إصلاح السلوك وتنقية النية - الأرضية اللازمة لبلوغ الدرجة نفسها مع الإمام.

تربط هذه الخطوات الثلاث، على نحو متسلسل، العقل بالقلب، والقلب بالعمل، لتكون نتيجتها تكوين شخصية مؤمنة تمتلك القابلية للدخول في مدار الإمام ونيل مرتبته. وفي ختام الرواية، يؤكّد أمير المؤمنين (عليه السلام) بوضوح أنّ الإنسان الثابت في زمن الغيبة «سيكون يوم القيامة معي وفي درجتي». هذا القول يرسم أفقاً رفيعاً أمام الإنسان، ويظهر أنّه قادر على اختبار مسارٍ من النمو غير المحدود. من هذا المنطلق، فإنّ بلوغ درجة الإمام لا يعني محو الفروق الوجودية بين الإنسان والمعصوم، بل يعني الوقوف في شعاع نور الإمام وتحقيق القابليات الإلهية للإنسان. كما أنّ ارتباط الإنسان بالإمام ليس طريقاً مختصراً للتركيز الذاتية، بل هو المسار الجوهرى للتكامل. وكلّما ازداد هذا الارتباط عمقاً، ازدادت دقّة التقويم، واتّضح الطريق نحو الحقيقة.